الحزن في كل مكان ..

قصة بقلم ياسين رفاعية

ايقظتني امي في الصباح « ١ » ، بوجهها الكئيب وبصوت كانه منبعث من الاعماق : ـ قم ... الوقت متاخر .. !

لم اكن نائما في تلك اللحظة ، كنت مغمض العينين ، تحملني افكاري الى اشياء حلوة عرفتها في الماضي ، وعشتها بكل دقائها ، لكنها انهارت فجاة حالما رحلت سميرة عني .

عندما شرعت بارتداء ملابسي ، كنت ارمق امي غفلة بين الفينة والفينة ، كانت قريبة جدا من المدفاة التي كان لهيبها يتصاعد ازرق باهتا وكانت عيناها تحدقان ببلاهة في كنزة صوفية صفراء لم تتم بعد ، معلقة في المشجب ، ولقد تجمعت فيهما الدموع ، ولم تنهمر ..

حاولت منذ ايام ، ان اخفي هذه الكنزة عن انظار امي ، وما ان فعلت حتى راحت تطلب مني اعادتها باصرار وعناد :

ـ يجب ان تعيدها الى مكانها .. ثم اياك ان تخفيها عني مرة ثانية . اذا اردت ان اكون راضية عنك .. فاعدها الى مكانها ..

اعدتها ، لم اكن ارغب في ان تغضب . وراحت بعد ذلك تحاول ابرازها بعناية ، كانها مخلوق حي يحتاج لرعايتها .

لما انتهيت من ارتداء ملابسي ، قالت دون ان تحاول الالتفات نحوي :

ـ تاكل ... ؟

ـ لست جائعا

ولم تفه امي بكلمة اخرى ، بل تكومت اكثر في الزاوية ناحية المدفاة دون ان تحول ناظريها عن الكنزة .

خرجت من البيت ، وبي وهن عظيم .. حتى الهواء الذي استنشقه يكاد يكون ثقيلا على رئتي .

ها هو الاسبوع الثاني يمر على رحيل سميرة ، احسست بعدهما بالهرم ، وكانني اصبحت شيخا مسنا اثقلته اعباء الاعوام المرهقة ، ولقد شعرت تلك الايام التي مضت بذلك الفراغ الرهيب الذي احدثه هذا الرحيل في ذاتي من الداخل .

عندما وصلت المعمل ، كان الضجيج يعلو كل مكان ، لكن اعماقي كانت تسبح في سكون رهيب .

قال زميلي :

ـ صباح الخير ..

ـ صباح الخيرات .. قلت ذلك وانا افكر بهذه اللهجة التي بدا زميلي يحدثني بها « صباح الخير » كانه يود ان يعزيني بنطقه هذه الكلمات حزينة من اعماقه ..

كان من عادته ان يثرثر كثيرا بجانبي ، وكان يستشيرني في مشاكله العاطفية . ويسكتبني رسائله الغرامية التي كان يرسلها الى فتاته دون ان يتلقى منها جوابا .. وكان احيانا يحدثني عن افكاره الخاصة حول الحياة التي يحياها والامنيات التي يتمناها ان تتحقق .

لكنه منذ رحلت « سميرة » عني ، لم يكن يخاطبني الا لماما ، كنت المحه يرمقني بنظرات رثاء ، وكان يحاول احيانا ان يتفوه بكلمة ، الا انه كان يستنكف في اخر لحظة .

من عادتي ان اتناول الغداء عند احمد ، فله دكان صغيرة بجانب المعمل يبيع فيها الحمص والفول اضافة الى بعض الفواكه . وكان مذياعه يملأ ذلك المكان ضجيجا ، ومنذ رحلت سميرة ، لم اعد اسمع لمذياعه صوتا ، ولمجرد ان اخرج من باب المعمل ـ قبل الرحيل ـ كان يترامى الى اذني صوته وهو يصرخ على بضاعته كانه يضحك ، لكنني هذه الايام لم اعد اسمعه كما كان من ذي قبل . ان تغييرا كاملا طرا على احمد.

قال لي اليوم :

ـ انت تغرق نفسك بالحزن ياخي ، حرام عليك ، لقد نضب وجهك ، عيناك غائرتان ، لكانك هرمت .. اعرفك تهزأ بالمصائب . فما بالك هذه الايام . لا بد لنا جميعا من الرحيل في يوم ما .

عندما لم اجب احمد بكلمة واحدة ، عاد الى صمته ، كان يتحرك ببطء عكس عادته التي الفتها .

خرجت من عنده ، كانت السماء متلبدة ، سحبها سوداء قاتمة، كقلبي القاتم ، وكانت الريح تعصف باشجار البستان المقابل للمعمل . وتحدث اصواتا كعويل الذئاب .

كانت نفس الريح تصرخ ، عندما ودعت سميرة الوداع الاخير ، لم تهطل من عيني دمعة ، كان وجهها باردا كالصقيع ، وثمة ابتسامة باهتة مرتسمة على شفتيها ، ويداها مضمومتان على صدرها . وقد كان ظاهرا للعيان مكان المحبس الذهبي الذي البسها اياه خطيبها زياد منذ اشهر ثلاثة . لقد خلعوه من اصبعها حتى بدا مكانه اصفر باهتا .

ومع ذلك ، لم ابك ، لكنني احسست ان حزما من الشوك كانت تدمي قلبي وتمزق احساسي ..

ابعدوني عنها ، كان صوت امي يترامى الي وهي تصرخ منتحبة : لاتتركيني ياسميرة .. ياحبيبتي .. لاتتركيني .. انك لم تنتهي من الكنزة بعد .. لقد وعدتني ان تهديها لي.. لا .. لا تاخذوها ..

لكنهم اخذوها ، حملوها الى النعش ثم اغلقوه عليها .. ومع ذلك .. فقد عجبت لم لم ابك .. لكنني كنت ذلك الوقت احس انني اسقط في قاع عميق .. عميق لا قرار له .. اسقط .. واسقط ، وجسدي يتقلب فيه كالغبار .

عندما خرجت من المعمل ، لفحني هواء الشارع البارد ، وراح يلسع وجهي المنهك بقسوة .. احسست انني لاستطيع ان اسرع الخطوات فقد كنت متعبا للغاية . قدماي اجرهما على الارض . ورأسي متدل على

---

[1] من مجموعة قصص تصدر عن «دار الوعي العربي» قريبا بهذا العنوان

صدري بحسرة .

ينهمر المطر الان بغزارة ، يغسل رأسي ووجهي ، والشارع يكاد يكون مقفرا ، ثمة رياح شديدة تصفع خيوط المياه المتساقطة ، فتبدو مائلة .. وانا امضي في اتجاه معين دون اسراع .

عندما حملوا نعش سميرة ، كان المطر ينهمر كهذا اليوم .. لم يكن يرافقني في تشييعها الا بعض الاقارب وزملائي في العمل واحمد ،وخطيب سميرة زياد .. كان يبكي بحرقة ويجهش بصوت مسموع .. وفي المقبرة ، تناول الحفار جسد « سميرة » الغض بوجه جامد ووسدها تراب الحفرة .. ثم اغلقها . ورفع راسه متجها الى كومة التراب وراح ينهال به عليها .. كمثال من الجص يتحرك بآلية ..

اذكر هذه الاشياء جيدا ، فلقد كان سكون الموت الرهيب يتمسك بجسد سميرة .

ومنذ اسبوع ، رأيت زياد ، كانت تتدلى من ياقة قميصه المنشاة عقدة سوداء ، ولقد كان الحزن واضحا في عينيه ، حاول ان يتكلم ، لكن سرعان ما اندفعت الدموع على وجنتيه ... فاختنق صوته : وودعني دون ان ينفوه بكلمة ..

كان حزينا حقا . لم المه . فسميرة حلوة ، عيناها صافيتان ربيعيتان بلون الحقول الخضراء ، شعرها بلون الفجر في ليلة صافية الاديم . طويلة ، لكنها نحيلة بعض الشيء . عنقها مرمر ابيض .كان زياد يحبها . كنت الاحظ ذلك ، منذ كان يزورها ومعه امه . لاشك ان سميرة احبته ايضا .. فقد كانت تبدو سعيدة جدا كلما زارها . وفي يوم ما . وعدتني ان تشتغل لي كنزة حالما تنتهي من كنزة امها .. فلم يبق لزفافها اكثر من ثلاثة اشهر .

لكن سميرة رحلت الان ، انشب ذلك الموت اللعين اظافره بأعوامها التسعة عشر .. واختصر حياتها التي كان من الممكن ان تكون سعيدة .

الطبيب ، لم يمنعها من الزواج ، فضعف قلبها ليس خطرا . ومعذلك رحلت قبل ان تتزوج وتركت كنزة امها دون ان تتممها .

اقتربت الان من سور المقبرة ، كان الماء قد تسرب من ملابسي حتى جسدي فشعرت بقشعريره هزتني بعنف .

عندما تخطيت باب المقبرة ، لمحت صورة سميرة تبرز من بين القبور بوجهها النحيل وبابتسامتها الباهتة . وشعرت بشيء يشدني اليها . اقتربت من القبر .. فاذا بي وحيدا .. والمقبرة موحشة موحشة . « انا لله انا اليه راجعون » ياالهي . لماذا ترجع اليك سميرة وهي بعد بعمر الورد . وهي بعد لم تنعم بحياتها . هل هذا عدل .. ياالهي ..؟

تذكرت وجه سميرة النضر ، ترى كيف اصبحت حالته الان ان العينين الحلوتين قد اكلتهما الحشرات ..

لمحت الورد الذي لم يذبل بعد ، وقد زين واجهة القبر . ان امي تاتي اليه كل صباح ومعها باقة ورد .. مسكينة امي . همها منذ رحلت سميرة ان تختار باقة ورد كل يوم لتضعها على قبرها .

كانت المقبرة مغرقة في وحشتها ، وقد بدا الظلام يتسرب اليها . والمطر مايزال ينهمر بشدة على القبور . لاشك ان الماء قد تسرب الى جسد سميرة المشوه . يا حبيبتي .. يا سميرة .. يا سميرة .

وتوالت صور الماضي مسرعة على مخيلتي . ان سميرة تملا اكثر هذه الصور .. اذ ذاك شعرت بالدمع يتدفق من عيني حارا ويختلط بماء المطر الذي يغسل وجنتي .

عم الظلام الكون الان . شعرت بالخوف والوحشة . فمشيت خارج المقبرة . كان دمعي يتدفق بغزارة ، سميرة ، كانت لاتحب الوحدة ابدا . انها ستظل وحيدة بعد الان . حتى الابد .

وصلت البيت ، كانت امي ماتزال مقتعدة الزاوية .بالقرب من المدفاة ، وكانت الى جانبها هذه المرة خالتي وابنتها . القيت تحية المساء ، ثم دخلت غرفتي .

غرفتي صغيرة ، ولقد كانت سميرة تعتني بها كثيرا ، اجلت الطرف قليلا في اشيائي « كتبي ومنضدتي ومذياعي الصغير .. » كان الغبار يعلوها بكثرة . ان احدا ما لم يقترب منها .. منذ رحلت سميرة ..

عندما ضم فراشي جسدي المتعب ، كان المطر يصفق زجاج النافذة بشدة ، اطفات المصباح الكهربائي . حاولت النوم . الا ان الافكار اجتاحتني . ذات يوم قلت لسميرة : « عما قريب ستذهبين الى بيت زوجك .. فمن سيعتني بي .؟ قالت ضاحكة : سأخطب لك وسأبحث لك عن فتاة حلوة تستطيع ان تمنحك السعادة .. لقد ان لك ان تتزوج ياأخي .. فامنا قد كبرت واصبحت عاجزة عن خدمتنا .. ووافقتها على ذلك ..

ياالله .. والان .. من ذا الذي سيبحث لي عن زوجة تمنحني السعادة .. من ذا الذي سيعتني بكتبي واشيائي الاخرى بعد اليوم . سميرة . كانت تحبني . تحب اشيائي كثيرا .. لكنها رحلت وتركتني وحيدا مع ام محطمة .

واحاول النوم . لكن طيف سميرة لايبرحني .. يخطف الكرى من جفني ..

دمشق — **ياسين رفاعية**

من « جمعية الادباء العرب »

من منشورات دار الآداب

دواوين الشاعر الكبير نزار قباني

انت لي

سامبا

طفولة نهد

قصائد نزار قباني

في طباعة انيقة مترفة ستكون زينة لكل مكتبة